المحسنات المعنوية

١- الطباق

قال تعالى : ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ وقال عليه السلام فى حديث طويل: (. . الدنيا عرض حاضر، يأكل منه البار والفاجر).

وقال الشاعر :

ليث بعثر يصطاد الرجال إذا ما كذب الليث عن أقرانه صدقا

فى الآية الكريمة كلمتان العلاقة بينهما هى التضاد، وهما: أيقاظا ورقود. وفى الحديث الشريف كلمتان متضادتان – كذلك – وهما: البار والفاجر، وفى قول الشاعر كلمتان هما: كذب وصدقا. العلاقة بينهما التضاد أيضاً. لأن معنى كل من هذه الكلمات الست يضاد معنى الأخرى.

ومثل هذا الصنيع – يعنى الجمع بين الكلمات ذات المعنى المتضاد – يسمى عند علماء البلاغة الطباق.

وكما يكون الطباق بالجمع بين الكلمات المتضادة المعنى يكون بالجمع بين الكلمات التى تكون معانيها متناقضة. وذلك كثير ومنه قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ لأن العلاقة بين الموت والحياة هى التناقض [١] فالطباق – إذن – هو الجمع فى الكلام بين الألفاظ ذات المعانى المتضادة، أو المتناقضة وعلى هذا أدر الأمر كله فى تصورك لهذا الفن البديعى المعنوى. فكل كلام جمع فيه مؤلفه بين كلمات اختلفت معانيها بالتضاد أو التناقض فسمه (طباقاً) وأنت واثق مطمئن [٢].

---

(١) ولعلك تذكر أن الضدين لا يجتمعان وقد يرتفعان. وأن النقيضين لا يجتمعان ولا يرتفعان. فلابد من وصف الشئ بأحدهما.

(٢) وقد درج الأقدمون على تعريفه بأنه (الجمع بين متضادين فى الجملة) وفيه قصور كما ترى.

هذا هو مذهب الجمهور . وخالفهم قدامة بن جعفر فيرى : أن الطباق هو اتحاد كلمتين فى اللفظ مع اختلافهما فى المعنى . كقول الشاعر :

وأقطع **الهوجل** مستأنساً **بهوجل** عيرانة عنتريس [1]

هوجل الأولى معناها الطريق البعيد . وهوجل الثانية معناها الناقة فالكلمتان متحدتان فى اللفظ كما ترى مع اختلاف المعنى .

أما الطباق عنده ، فقد سماه **التكافؤ** . ولا يخفى عليك أن ما سماه قدامة طباقاً هو الجناس عند الجمهور . وقد نقد ابن بشر الآمدى رأى قدامة ورجح مذهب الجمهور وتابعه كثير من النقاد .

وإذا رجعنا إلى المعنى اللغوى فإننا نجد المطابقة بمعنى الموافقة والمماثلة [2] . وعلى هذا فلا مناسبة بين المعنى اللغوى والمعنى الاصطلاحى لهذا الفن (الطباق) . إلا أن يقال : أن الجمع بين اللفظ وضده أو نقيضه فيه معنى المناظرة والمماثلة من حيث إنه ضد أو نقيض . فكأنك تثبت اللفظ ثم تجتهد فى أن تضع بإزائه لفظا آخر يدل على معنى مقابل لما دل عليه الأول ، ولا ترضى بأن تضع بإزائه أى لفظ كيفما اتفق .

وبعد أن عرفت ما هو الطباق فإليك الآن صوره وأنواعه وما يلحق به وأقسامه :

الطباق قد يأتى بين كلمتين من نوع واحد ولهذا ثلاث صور :

١ – أن يكون بين اسمين كقوله تعالى : ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ** ﴾ وقوله : ﴿ **اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ** ﴾ وكقول الرسول عليه السلام :

---

(١) عيرانة عنتريس : الناقة السريعة المليئة .

(٢) وقد يقال فى اللغة : طابق البعير فى سيره إذا وضع رجله فى موضع يده . وقد انتصر ابن الأثير لرأى قدامة على مذهب الجمهور تمسكاً بهذا المعنى حيث شبه توارد اليد والرجل على مكان واحد وهما مختلفان بتوارد المعنيين على اللفظة الواحدة كهوجل مثلاً .

(أوصانى ربى بتسع أوصيكم بها : (أوصانى بالإخلاص فى **السر والعلن** والعدل فى **الرضا والغضب**. والاقتصاد فى **الفقر والغنى**).

ومنه قول الشاعر :

أمؤثرت **الرجال** على ليلى ولم أوثر على ليلى **النساء**

وقول الشريف الرضى :

بتنا ضجيعين فى ثوبى **هوى وتقى** يلفنا الشوق من فرع إلى قدم

ومنه قول الآخر :

كأن سهاد الليل يعشق مقلتى فبينهما فى كل **هجر لنا وصل**

وقال آخر :

وتوقعى منك الإساءة جاهداً والعدل أن أتوقع **الإحسانا**

فى يسير من النظر ترى أن الطباق فى جميع النصوص المتقدمة حاصل بين كلمتين من نوع واحد، لأنهما اسمان.

٢- أن يكون بين فعلين . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ** ﴾.

وقوله تعالى :

﴿ **إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ** ﴾

وقوله سبحانه :

﴿ **فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ** ﴾.

وقال عليه السلام : (إنكم لتكثرون عند الفزع. وتقلون عند الطمع) وقال أيضاً : (إياكم والمشارة فإنها تميت الغرة وتحيى العرة) [1].

---

(١) ينهى الرسول عليه السلام الأمة عن اصطناع الشر فإنه يمحو المودة من القلوب ويوقد بينها نار العداوة.

ومنه النصوص الآتية :

قال ابن المعتز يمدح أباه :

جمع الحق لنا فى إمام قتل البخل وأحيا السماحا

وقال آخر :

أنت للمال إذا أمسكته فإذا أنفقته فالمال لك

وقال ابن مقروم الضبى :

فدعوا نزال فكنت أول نازل وعلام أركبه إذا لم أنزل

وقال بشار :

إذا أيقظتك حروب العدى فنبه لها عمراً ثم نم

ومنه :

تأخرت استبقى الحياة فلم أجد لنفسى حياة مثل أن أتقدما

وقال أوس بن حجر :

أطعنا ربنا وعصاه قوم فزقنا طعم طاعتنا وذاقوا

ومن ذلك أيضاً قول دعبل الخزاعى :

لا تعجبى يا سلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكى

وأنت خبير أن الطباق فى النصوص المتقدمة حاصل بين كلمتين من نوع واحد وهما فعلان.

٣- أن يكون بين حرفين [١]. ومثاله من القرآن الكريم قوله سبحانه ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾.

ومنه قول النبى عليه السلام : (النظرة الأولى لك، والثانية عليك).

---

(١) فى هذا التعبير تسامح - كما يقال - لأن الطباق حاصل بين متعلقى الحرفين وليس بينهما حقيقة. فكن على ذكر منه.

ومن المعروف قول مجنون ليلى :

على أننى راض بأن أحمل الهوى وأخرج منه لاعلىَّ **ولاليا**[1]

وهذا النوع أقل وروداً واستعمالاً من سابقيه لأن المجال فى تقابل الحروف غير متسع.

● وقد يأتى الطباق كثيراً بين كلمتين من نوعين مختلفين: اسم وفعل، أو فعل وأسم.

مثال الأول قوله تعالى : ﴿ **أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ** ﴾[2] فطرفا الطباق فى الآية الكريمة مختلفان، الأول اسم (ميتاً) والثانى فعل: أحييناه.

ومثال الثانى قول الشاعر :

بساهم الوجه لم تقطع أبا جله يصان وهو ليوم الروع مبذول

فالطباق بين (يصان) وهو فعل، وبين (مبذول) وهو أسم. وليس لهذين النوعين ثالث إذ لا تقابل بين الحرف وكل من الأسماء [3] والأفعال.

* وفى بعض الصور يدق أمر الطباق فلا يدرك إلا بعد تأمل وفكر. ومن هذا قوله تعالى: ﴿ **مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا** ﴾.

فليس الطباق بين الإغراق والإدخال فى النار، وإنما هو بين الإغراق والإحراق الذى هو مسبب عن الإدخال فى النار.

ومنه قوله تعالى فى وصف صحابة الرسول عليه السلام :

﴿ **أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ** ﴾.

فالطباق بين الشدة واللين الذى كان سبباً فى الرحمة المصرح بها ولعل إيثار

---

(١) وذلك لأن علىَّ معناها المضرة. ولى معناها المنفعة.

(٢) ابن أبى الأصبع يسمى الطباق طباق التكافؤ إذا كان طرفاه مجازيين كما فى الآية الكريمة، أو كان أحد طرفيه مجازاً. أنظر كتابه (بديع القرآن) والخطيب يسميه ايهام التضاد.

(٣) فى شروح التلخيص رأى يقول بجواز مجئ الطباق بين حرف واسم وحرف وفعل وهذا بعيد عن الواقع وليس له مثال مأثور.

الرحمة على اللين، لأن الرحمة من المعانى الشريفة دائماً ولا تكون إلا من قوى. بينما اللين قد يكون عن ضعف. كذلك فإنه لو لم يؤثر الرحمة لكان حق التعبير أن يقال: لينا بينهم. ولفظ لينا هذا غير مسموع فيما نعلم.

ومنه أيضاً قوله تعالى:

﴿ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ﴾.

فالطباق بين السكون وبين الحركة التى هى سبب فى ابتغاء الفضل وأوثر ابتغاء الفضل – كذلك – لشرفه. لأن الحركة قد تكون فى الشر. وابتغاء فضل الله خير دائماً.

قسما الطباق:

للطباق قسمان كبيران، أحدهما طباق **الإيجاب**. ومنه كل الأمثلة المتقدمة والثانى طباق **السلب** وضابطه: أن تجمع بين فعلى مصدر واحد أحدهما مثبت، والثانى منفى.

أو أحدهما أمر، والثانى نهى. فطباق السلب نوعان كما يؤخذ من التعريف. وإليك الأمثلة:

فى القرآن الكريم جاءت النصوص الآتية:

﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (١).

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾.

﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ﴾.

هذه أمثلة للنوع الأول. أما النوع الثانى فمنه قوله تعالى:

﴿ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ ﴾ فحصل الطباق بين النهى عن الفعل فى جانب والأمر به فى جانب آخر. وهذا ظاهر.

---

(١) وقع العلم فى فاصلة الآية منفياً. ونفى العلم معناه الجهل. ومن هنا كان الطباق بين صدر الآية وعجزها. وعلى هذا قس بقية الأمثلة.

ومنه قوله تعالى : ﴿ **فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم** ﴾ .

ومن الشعر العربى وردت هذه النصوص :

* وننكر – إن شئنا – على الناس قولهم
ولا ينكرون القول حين نقول

* يقيض لى من حيث **لا أعلم** الهوى
ويسرى إلى الشوق من حيث **أعلم**

* أتصحو أم فؤادك **غير صاح**
عشية هم صحبك بالرواح [1]

* خلقوا وما خلقوا لمكرمة
فكأنهم **خلقوا وما خلقوا**

* رزقوا وما رزقوا سماح يد
فكأنهم **رزقوا وما رزقوا**

* هضيم الحشا **لا يملأ** الكف خصرها
ويملأ منها كل حجل ودملج

تلك هى بعض صور طباق السلب . وواضح أن طرفى الطباق فيه متفقان فى اللفظ والمعنى، وإنما الاختلاف بينهما من حيث أن أحدهما مثبت والآخر منفى ومن طباق السلب قوله تعالى ﴿ **مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ** ﴾ وهذا المثال لم يشمله التعريف لأنهم خصوا طباق السلب بالأفعال دون الأسماء كما هو واضح من تعريفهم له . وكان ينبغى أن يكون التعريف شاملاً لأنواع المعرف . فإذا أبوا أن يكون هذا المثال من طباق السلب لأنه ليس جارياً على التعريف كان ذلك

---

(١) طابق بين إثبات الصحو فى صدر الشطر الأول من البيت، ونفيه فى عجزه إذ هو فى قوة قولك: لا يصحو. وأم فى البيت بمعنى بل فهى للإضراب وليست استفهامية.

بمناى عن الصواب. وقد رأيت فى حاشية الدسوقى ما يؤيد هذه النظرة، وكذلك فعل صاحب الأطوال [1].

التدبيج :

يقول أبو تمام فى مدح محمد بن حميد الطوسى حين استشهد :

تردى ثياب الموت **حمراً** فما دجا

لها الليل ألا وهى من **سندس خضر**

قابل الشاعر بين الحمرة والخضرة ، فالحمرة كناية عن استشهاده بالقتل، والخضرة كناية عن دخوله الجنة.

وقال ابن حيوس من شعراء الشام :

إن ترد حلم حالهم عن يقين فالقهم يوم نائل أو نزال

تلق بيض الوجوه سود مثار النقع خضر الأكناف حمر النصال

المعنى : إذا أردت أن تعرفهم معرفة حقة فاشهد مواقف عطائهم وشجاعتهم فإنك ترى من البهاء والكرم والشجاعة نماذج فريدة. لكن الشاعر لم يذكر هذه المعانى صراحة بل توصل إليها عن طريق الكناية بالألوان. فأراد من بياض الوجوه البهاء، ومن سواد النقع سرعة الحركة وتكرارها فى ميدان القتال لدرجة أن النقع المثار من حوافر الخيل قد كان من الكثرة حيث كون طبقة تحجب ضوء الشمس. وهذا المعنى طرقه كثير من الشعراء [2]. وأراد من خضرة الأكناف كثرة الكرم وأراد من حمرة النصال [3] كثرة قتلهم لأعدائهم.

فأنت ترى أن الشاعر جمع بين عدة ألوان ولم يرد منها حقائقها بل كنى بها عن معان أخرى، وهذا هو المسمى **بالتدبيج** وهو الجمع بين ألوان بقصد الكناية

---

(١) انظر شروح التلخيص جـ٤ ص٢٩٠ حاشية الدسوقى.

(٢) قال بشار :

كأن مثار النقع فوق رءوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

(٣) النصال : السيوف أو الرماح.

أو التورية. أما الكناية فقد تقدمت أمثلتها. وأما التورية فقد مثلوا لها بقول الحريرى صاحب المقامات المشهورة:

(فمذ أزور المحبوب الأصفر، وأغبر العيش الأخضر، أسود يومى الأبيض وأبيض شعرى الأسود، حتى رثى لى العدو الأزرق، فياحبذا الموت الأحمر).

والشاهد فى قوله (الأصفر) والمراد منه (الدينار). ولكن المتبادر إلى الذهن أن قصده منه (الحبيب) الذى لونه أصفر ففى العبارة تورية لأن المعنى القريب المتبادر إلى الفهم غير مراد، بل المراد البعيد وهو الدينار. ولا تنس أن هذا التدبيج بنوعيه من ملحقات الطباق. وأن التدبيج مأخوذ من قولهم دبج المطر الأرض يعنى زينها بألوان النبات، فالمناسبة بين المعنى الاصطلاحى والمعنى اللغوى واضحة.

المقابلة:

لا تظن – أيها الدارس – أنك أمام فن جديد من فنون البديع – غير الطباق – فإنك مازلت فى رحابه وإن اختلف العنوان. فالمقابلة المعنون لها هنا طباق كذلك وكل ما بينهما من فرق هو أن الطباق يكون بالجمع بين لفظين فذين على النهج الذى علمت. والمقابلة تكون بالجمع بين أكثر من لفظين فذين، وليس هناك فرق بينهما سوى المذكور على الأصح. فالفرق بينهما – إذن – من حيث العدد.

وللمقابلة عدة صور إليك أهمها:

١– أن تكون بين اثنين واثنين، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً**﴾.

وتحليل الآية: الضحك فى مقابلة البكاء، والقلة فى مقابلة الكثرة. فالمقابلة هنا عبارة عن طباقين، لأنك لو جمعت فى غير القرآن بين الضحك والبكاء لكان طباقاً كما مر: تضحك الأرض من بكاء السماء. وهكذا الحال لو جمعت بين القلة والكثرة. وقد جاء ذلك فى محكم التنزيل.

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً ﴾ فهذا – أيضاً – طباق بلا خلاف.

ومنه قول الشاعر :

فتى تم فيه **ما يسر صديقه** على أن فيه **ما يسوء الأعاديا**

٢–أن تكون بين ثلاثة وثلاثة مثل قول أبى الطيب المتنبى :

فلا الجود يفنى المال والجد مقبل ولا البخل يبقى المال والجد مدبر

قابل كلا من الجود والإفناء والإقبال بكل من البخل والإبقاء والإدبار.

٣– أن تكون بين أربعة وأربعة. وعليه جاء قوله تعالى :

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ * وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴾.

قابل بين أعطى وبخل ، واتقى واستغنى [١]، وصدق وكذب، واليسرى والعسرى.

٤– وقد تكون بين خمسة وخمسة كقول الشاعر :

أزورهم وسواد الليل يشفع لى وأنثنى وبياض الصبح يغرى بى

وفى توضيح ذلك قالوا : أن الشاعر قابل بين أزورهم وأنثنى، وسواد وبياض، والليل والصبح. ويشفع ويغرى. ولى وبى [٢].

والمعنى :

أزور أحبتى فى حماية الليل ، وأعود تحت وشاية ضوء الصبح. ففى كل من يشفع لى ويغرى بى استعارتان مكنيتان كما ترى.

٥– وقد يكون بين ستة وستة. قالوا ومنه قول الشاعر:

---

(١) استغنى يعنى فجر وطغى وهى فى مقابلة (اتقى) من الآية الأولى.

(٢) وقد نقد بعضهم هذا الشاهد لأن المقابل ليل هو النهار لا الصبح.. وأن لى وبى صلتان للفعل فليسا هما طرفين مستقلين.

على رأس حر تاج عز يزينه وفى رجل عبد قيد ذل يشينه

على أن كل كلمة فى البيت تقابل الأخرى. وقد أوصلوا هذه الصور إلى مقابلة عشرة بعشرة. والحق أن هذا تكلف مردود لا يأتى عفو الخاطر إلا بالتعمل والمغالاة وأحسبك الآن قد علمت ما هو الطباق. صوره وأقسامه وملحقاته فتعال معى لننظر فى بعض نماذجه فى شئ من النقد والتوجيه:

قال الشريف الرضى :

بتنا ضجيعين فى ثوبى هوى وتقى يلفنا الشوق من فرع إلى قدم

قابل بين الهوى والتقى ، وبين الفرع والقدم. وهذا البيت من أجود ما قيل فى إثبات العفة مع حرقة الهوى. وقد اشتمل على صور رائعة من جمال التعبير وخلابة المعنى فجاء حافلاً بالمفاجآت فإنك حين تسمع مطلع البيت بتنا ضجيعين. يخيل إليك ما فى هذا الموقف من مزالق لا دافع عنها. لكنه لم يلبث أن يخفف من دهشتك عندما تسمع لقوله (فى ثوبى ...) فتقف قليلاً حتى تعلم ما هذان الثوبان؟ فإذا وصلت إلى قوله: (هوى) تجددت دهشتك لكن إلى أمد قصير. لأن قوله (وتقى) يزيل من نفسك كل دواعى الدهشة والإشفاق.

وقد كان الشاعر حكيماً فى تقديم الهوى على التقوى، لأن الهوى هو السبب المباشر فى حدوث بياتهما ضجيعين ولابد أن يلى السبب مسببه، أما التقوى فهى سبب فى أمر آخر هو العفة المتأصلة فى طباع صاحبها. ولولا هذه الكلمة لكان البيت مثالاً للخلاعة والمجون فى أجلى صورهما. وهل هذا يليق بالشاعر وهو ذو مزاج صوفى ورع.

ومن جيد الطباق قول الحطيئة :

هم القوم الذين إذا ألمت من الأيام مظلمة أضاءوا

فقد طابق بين الإظلام والإضاءة المفهومين من مظلمة وأضاءوا وزاد من جودة سبكه أن المعنى قد تطلب القافية ولم تقسر من أجله لأن ظلام الأيام يتطلب الإضاءة [1].

وقال الفرزدق يهجو بنى كليب :

لعن الإله بنى كليب أنهم ... لا يغدرون ولا يفون لجار

يستيقظون إلى نهاق حميرهم ... وتنام أعينهم عن الأوتار

وصفهم بالعجز والضعف والخيانة واشتغالهم بمحقرات الأمور.

وقوله : لا يغدرون. ليس مدحاً لأنه قرنه بقوله: ولا يفون. فدل نفى الوفاء عنهم على أن عدم الغدر إنما هو لعجزهم ولولا ذكر عدم الوفاء لكان مدحاً. وهذا يسمى التكميل أو الاحتراس وهو أن يؤتى فى كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفعه.

كما أوقع الشاعر عدم الوفاء على حقوق الجار. وهذا مبالغة فى ذم بنى كليب لأنهم إذا لم يفوا للجار كان عدم وفائهم لغير الجار حاصلاً من باب أولى. وعدم الوفاء للجار شنيع فى ذاته. هذا المعنى إنما فهم من كلمة القافية (لجار) وكان المعنى قد تم بدونها فأفادت زيادة فى المعنى. وهذا يسمى (الايغال) وهو أن يؤتى فى آخر البيت بما يفيد نكتة يتم المعنى بدونها.

والطباق فى البيت الثانى بين : يستيقظون. وتنام .. يعنى: ينامون عن المعالى ويشغلون أنفسهم فيما لا فضل فيه.

ومن جيد الطباق فى النثر قول الحسين رضى الله عنه :

(من نعم الله عليكم كثرة حوائج الناس إليكم. فلا تملوا النعم فتعود نقما).

---

(١) انظر سر الصناعتين لأبى هلال العسكرى ص١٢٨ .

ومما يروى عن الإمام على رضى الله عنه : (إذا أقبلت الدنيا على شخص أعطته محاسن غيره. وإن أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه).

وقال ابن عباس :

(كم من أذنب وهو يضحك دخل النار وهو يبكى) وقال رجل لمعاوية يعزيه فى وفاة بنت له:

(الحمد لله الذى أكرمها بوقوفك على قبرها ولم يخزها بوقوفها على قبرك).

وقال الحسن رضى الله عنه :

(ما رأيت يقينا لا شك فيه . أشبه بشك لا يقين فيه من الموت) يعنى: أن الموت آت لا محالة. وهذا يقين لا شك فيه. ولكن متى يحل وينزل لا أحد يعلم. وهذا شك لا يقين فيه.

ومن ذلك قول ابن عبد الملك :

(الغنى فى الغربة وطن. والفقر فى الوطن غربة) وهذا من السهل الممتنع كما ترى.

ما مر بك من نصوص آنفا هى موضع رضى عند نقاد الأدب وخبراء الأساليب، وإليك بعض النصوص التى طابق فيها قائلوها أو قابلوا فلم يوفقوا كل التوفيق. لتدرب ذوقك على معرفة ما هو جميل، وما هو عار من الجمال.

قال المتنبى :

لمن تطلب الدنيا إذا لم ترد بها سرور محب، أو إساءة مجرم

يعنى : أن الدنيا تطلب ويسعى لها من أجل هذين: إدخال السرور على الأحبة، أو الإساءة إلى الأعداء.

وأراد أن يطابق بين السرور والإساءة، والمحب والمجرم. فجاء صنيعه دون المستوى المطلوب.

فهو وإن صح له مقابلة السرور بالإساءة [1]، فلا يصح مقابلة المحب بالمجرم، لأن ضد المحب المبغض وليس المجرم.

وقال البحترى :

تشق عليه الريح كل عشية جيوب الغمام بين بكر وأيم

طابق بين بكر وأيم ، وهذا عمل غير سليم، لأن الأيم هى التى لا زوج لها سواء كانت بكراً أو ثيباً. فليست هى فى مقابلة البكر، وإنما الذى يقابل البكر هى الثيب ولا تكون المرأة ثيباً إلا بعد سبق الزواج [2].

ومثل هذا البيت :

فحلت محل البكر من معطى وقد زفت من المعطى زفاف الأيم

يريد : أن المنحة نزلت من نفس آخذها منزلة البكر لأنه لم يأخذ مثلها قبلها ولكنها كانت عند معطيها له – الممدوح – بمنزلة الأيم يعنى أنه أعطى مثلها كثيرا. وليست هى أولى صنائعه الجميلة.

ومن ذلك – أيضاً – قول الشاعر :

وتنظرى خبب الركاب ينصها محيى القريض إلى مميت المال [3]

فقد وصف الشاعر نفسه بأنه محيى القريض. ولا اعتراض لنا على هذا التعبير لكنه حين أراد أن يطابق قال يصف الممدوح: مميت المال.

والمقصود من هذه العبارة وصف الممدوح بالكرم حيث جعل إماتة المال دليلاً على ذلك.

ولم يكن الكرم يوماً سبباً فى إماتة المال، بل هو على النقيض من ذلك محى للمال لا مميت.

---

(١) الأوفق الجمع بين السرور والغم ، أو الإحسان والإساءة. فها هنا مخالفة ولكنها أخف من الثانية. انظر عروس الأفراح من شروح التلخيص جـ٤ ص٣٩٥ .

(٢) انظر الموازنة بين أبى تمام والبحترى جـ. ص٧٧٦ تحقيق السيد صقر والوساطة ص٦٣ .

(٣) البيت فى الإيضاح جـ٢ ص ٣٤٠.

والأولى أن يعبر فى مثل هذا الموقف بالإنفاق أو البذل، لأن المال المعطى فى الكرم باق لباذله أجلاً، وعائد عليه بالفضل وحسن السيرة عاجلاً ومال هذا شأنه جدير بأن يوصف بالإحياء.

ومثل هذا البيت قول الطائى :

ولم يحفظ مضاع المجد شئ من الأشياء كالمال المضاع

فسمى المال الذى يكسب المجد وينال به العلا مضاعاً. وليس هو كذلك وإنما المال المضاع هو الذى ينفق فى الشهوات المحرمة والمتع الرخيصة.

وقال الأخطل :

قلت المقام وناعب قال النوى فعصيت قولى والمطاع غراب

يريد : أنه أراد الإقامة وأبت الأقدار إلا الرحيل. وقد طابق بين المقام والنوى، ثم طابق بين فعصيت والمطاع. وأنت ترى أن التعبير متكلف نافر. ولذلك لم يسترح له أبو هلال فقال معلقاً على البيت (وهذا من غث الكلام وبارده) [1].

ومن قبيح الطباق قول أبى تمام :

قد لان أكثر ما تريد وبعضه خشن وأنى بالنجاح لواثق

يعنى : أن جل مقاصده قد تحققت، وبعضها ما زال بعيداً، وهو مع ذلك واثق من الوصول إليها. وطابق بين الليونة والخشونة. وكان الأولى أن يطابق بين الليونة والشدة، أو بين النعومة والخشونة.

* * *

(١) الصناعتين ص٢٤٨ .

٢- المشاكلة

جاء في محكم التنزيل قوله تعالى : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾.

وقال سبحانه : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾

وقال سبحانه : ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾.

وقال الشاعر :

من مبلغ أفناء يعرب كلها أني بنيت الجار قبل المنزل

في الأمثلة المتقدمة وردت ألفاظ داعية إلى التفكير والنظر، مثل كلمة (سيئة) الثانية في الآية الأولى، ومثل (فاعتدوا) في الآية الثانية ومثل (ما في نفسك) في الآية الثالثة. ومثل: (صبغة) في الآية الرابعة. ومثل (بنيت الجار) في بيت الشعر.

لأن كلا من سيئة الثانية، واعتدوا المقصود بهما الجزاء الواقع بالمعتدى. فإذا أساء إليك أحد بقول أو فعل، أو اعتدى عليك بقول أو فعل فقد أجاز لك الشرع الحكيم أن تجازيه بقول أو فعل مماثل لما وقع منه عليك دونما تمادٍ في الجزاء حتى لا تتسع رقعة العداوة والخلاف بين المتخاصمين.

هذا حق . والأفضل أن تعفو وتصفح. وهذا واجب. وما دام الأمر كذلك يعني أنك تباشر عملاً مأذوناً لك فيه عندما تقتص لنفسك.

فلا يسمى هذا العمل سيئة ولا اعتداء. فلماذا – إذن – سميا كذلك في الذكر الحكيم؟

وقوله : ﴿ وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ لا يصح على إطلاقه، لأن المخاطَب هو

الله سبحانه. وإطلاق النفس على ذات القديم – سبحانه – غير صحيح هكذا قالوا.

أما قوله: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ فإن الأصل فى هذا المعنى أن يقال (تطهير الله) وسبب ذلك أن النصارى كانوا يغمسون أولادهم فى ماء أصفر يسمونه (المعمودية) ويقولون أن ذلك تطهير لهم فإذا فعل الواحد منهم ذلك بولده قال الآن صار نصرانياً حقا. ويسمون ذلك العمل (صبغة) وهو مصدر على وزن (فعلة) بكسر الفاء وسكون العين فهو اسم هيئة [1]. وتسمية تطهير الله صبغة مما يحتاج إلى توجيه.

وكذلك فإن الجار لا يبنى، وإنما الذى يبنى هو الجدار فكيف يقول الشاعر: إنى بنيت الجار؟ ذلك ما يدعو إلى النظر فى هذه النصوص جميعاً.

وقد عالج البلاغيون هذه الظاهرة والتمسوا لها وجهاً يتخذونه أساساً فى تفسيرها متى وجدت.

فقد قالوا إن هذه النصوص – وما كان على شاكلتها مما لم نذكره – قد جاءت على طريق **المشاكلة**. وقد عرفوها بقولهم:

(هى ذكر الشئ بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته تحقيقاً أو تقديراً) والمراد بالشئ الوارد فى التعريف هو المعنى. يعنى ذكر المعنى مدلولاً عليه بغير لفظه الموضوع له، بل بلفظ موضوع لمعنى آخر، والذى سوغ هذا التعبير هو وقوع الشئ (المعنى) المعبر عنه بلفظ غيره، فى صحبة معنى آخر معبر عنه بلفظه الخاص به. وهذا الوقوع نوعان حقيقى. وتقديرى.

فالتعبير بالسيئة عن العقاب والجزاء، وهو ليس سيئة حقيقة، إنما كان لأنه وقع مصاحباً لمعنى آخر عبر عنه بلفظه الخاص به وهو (سيئة) الأولى فى الآية

---

(١) والمعنى أن يقول المسلمون: طهرنا الله بالإيمان وصبغنا به لا مثل تطهيركم وصبغتكم. وصبغة الأولى فى الآية مصدر مؤكد لعامله المحذوف: صبغنا الله صبغة.

الكريمة (وجزاء سيئة سيئة مثلها) وهذا الوقوع حقيقى كما ترى. وكذلك بقية الأمثلة المذكورة فى صدر البحث ما عدا (صبغة الله).

(فاعتدوا عليه) وقع فى صحبة (فمن اعتدى عليكم) وقوله تعالى: (ولا أعلم ما فى نفسك) وقع فى صحبة (تعلم ما فى نفسى).

وقول الشاعر : بنيت الجار . وقع فى صحبة (قبل المنزل) الذى معناه: قبل بناء المنزل فالوقوع فى هذه الأمثلة حقيقة. هذا الوقوع هو الذى سوغ أن يعبر عن المعنى الثانى بلفظ المعنى الأول لوقوعه مصاحباً له. والمصاحبة نوع من المناسبة والعلاقات.

أما الوقوع التقديرى فحاصل فى قوله تعالى: (صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة) بمعنى: تطهير الله ومن أحسن من الله تطهيرا. لأن المعنى الواقع فى صحبته هذا التعبير ليس مصرحاً به، بل هو مفهوم من القرائن وأسباب النزول. لأن الآية نزلت فى شأن الرد على النصارى بادعائهم الصبغة على الوجه المذكور.

أمثلة أخرى للمشاكلة :

ها أنت قد فقهت معنى المشاكلة التى هى لون من ألوان بديع المعنى، ولا أخالك يغيب عنك شئ من أمرها. وإليك الآن نماذج أخرى خرجوها على المشاكلة:

قال ابن الرقعمق الأنطاكى :

قالوا : اقترح شيئاً نجد لك طبخه قلت : اطبخوا لى جبة وقميصا

يعنى : خيطوا لى جبة وقميصاً. لأن الجبة والقميص لا يطبخان وإنما يخيطان: والذى سوغ للشاعر أن يعبر عن معنى الخياطة بلفظ الطبخ لأن الخياطة وقعت مصاحبة للطبخ وقوعاً حقيقياً.

وقال الصاحب بن عباد فى شأن قاض شهد عنده برؤية هلال عيد الفطر فلم يقبل القاضى شهادته وأنكر وجود الهلال:

أترى القاضـــى أعمى أم تـــراه يتعامـــــى
سرق العيد كـــــأن العيد أموال اليتامى

لأن العيد لا يسرق وإنما يسرق المال ، ومنه أموال اليتامى، والذى سوغ للشاعر أن يعبر عن رفض وجود العيد بالسرقة هو وقوعه فى حيز ما السرقة صفة من صفاته وهو المال. لأنك تقول: مال مسروق، ولا تقول عيد مسروق. وهذا الوقوع حقيقى كما ترى. فلا تظنن أنه مقدر كما فى قوله تعالى: (صبغة الله) حيث أن سرقة المال لم تذكر صراحة فى الكلام. لأن المعنى سرق العيد كما سرق أموال اليتامى فكأن العيد مال يتامى. فقوله: كأن العيد أموال اليتامى متضمن ذلك المعنى. ومثله بنيت الجار قبل المنزل فإن ملاحظة البناء مع ذكر المنزل، وملاحظة السرقة مع ذكر أموال اليتامى أمر بدهى كما ترى. أما الوقوع المقدر كما فى الآية الكريمة الشريفة ألا يذكر المعنى، ولا يذكر شئ من ملابساته الدالة عليه.

وفى الكتاب الحكيم جاء المكر مسنداً إلى الله – سبحانه – على أسلوب المشاكلة فى كثير من المواضع منها قوله تعالى فى سورة الأنفال [1].

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾.

فالمكر بمعناه المطلق لا يليق بالله . لأنه – أى المكر – صرف الغير عما يقصده [2] الماكر بحيلة حتى يتمكن هو – يعنى الماكر – من إنفاذ مقصوده. وحاشى لله. فهو الغالب على أمره القائم على كل نفس بما كسبت. فالمكر المسند إلى الله – هنا – إنما جاء على طريق المشاكلة لما وقع من الكفار حسبما حكى عنهم القرآن.

---

(١) الآية (٣٠).
(٢) مفردات الراغب ص١٤ .

ومما جاء فى الذكر الحكيم أيضاً قوله تعالى :

﴿ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ (١) كان الكفار يقصدون إيذاء النبى عليه السلام بتسميته أذنا يعنى : يصدق كل ما يسمع، ويقوله ويردده . فأمره الله أن يقول فى الرد عليهم أنه : أذن خير لهم، وليس أذن شر. فوصف النبى عليه السلام من قبل الله بأنه أذن . إنما جاء مشاكلة من حيث الظاهر لما وقع من الكفار وفى هذا أبلغ رد عليهم .

ومن المشاكلة قول عمرو بن كلثوم (٢) :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

لأن قوله (فنجهل) المراد منه المعاقبة والمجازاة . وسمى (جهلاً) لوقوعه فى صحبة قوله (يجهلن) وهو بمعنى الاعتداء والإساءة ومنه قوله عليه السلام : (أن الله لا يمل حتى تملوا) لأن الملل بمعنى السأم غير لائق بالله سبحانه .

ويصح – كذلك – أن تحمل قوله عليه السلام : (أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك) على المشاكلة . لأن خيانة الخائن فيها معنى العقاب له والمجازاة على سوء فعله .

ومما هو متعارف فى ذلك قول القاضى شريح لرجل (أنك سبط الشهادة) فقال الرجل : (أنها لم تجعد عنى) .

فالبسوطة معناها السهولة والاسترسال والامتداد، والجعودة معناها الصعوبة والالتواء والقصور، وهما وصفان حقيقيان من أوصاف الشعر يقال : شعر مسبوط يعنى : منظم ومرسل . وشعر مجعد : يعنى ملتو ومتداخل بعضه فى بعض .

أراد القاضى من سبوطة الشهادة استمرار حفظها لدى الشاهد، وهذا تعبير مجازى مبناه التشبيه، فشاكل الرجل فى الرد وقال : أنها لم تجعد عنى . يعنى لم

---

(١) التوبة (٦١) .

(٢) من شعراء المعلقات ، والبيت من معلقته التى أولها : ألا هبى بصحتك فاصبحينا .

تغب ولم تصعب وتلتو. والذى سوغ له هذا كون القاضى سمى استمرار الشهادة سبوطة فكان هذا مدعاة ذاك. وهو مجاز مثله.

وروى أن رجلاً لم يؤد ما عليه من فرائض نحو ربه قال لنا صح له: (أليس لا إله إلاالله مفتاح الجنة ؟) يقصد أن النطق بها كاف فى تحقيق رضا الله له فيدخله الجنة. فقال الناصح: وكل مفتاح له أسنان. وأسنان مفتاح الجنة الفرائض من صلاة وصيام وزكاة وحج.

فسمى هذه الفرائض أسناناً على سبيل المشاكلة حيث سمى الأول: لا إله إلا الله مفتاحاً.

وقال أحد المعاصرين يوماً يمتدح حدة ذكاء العقاد رحمه الله: أن معدة العقاد لا تستطيع هضم كوب من اللبن وعقله يستطيع هضم صخور أسوان (١).

فلا شك أن الذى سوغ هضم الصخور إنما لوقوع ذلك مصاحباً لما يهضم حقيقة وهو اللبن.

وأنت خبير بأن المشاكلة إنما تحصل باللفظ الثانى المشاكل للأول. فهو موطن المشاكلة دائماً وليس مجموع الأمرين.

المشاكلة والطباق :

المشاكلة قد تجامع الطباق إذا كان طرفاها ضدين. وإذا رجعت إلى مثال سبوطة الشهادة وجعودتها وضح لك اجتماع كل من المشاكلة والطباق.

وذلك لأن الشاهد إنما ساغ له أن يصف الشهادة بالجعودة فى قوله: أنها لم تجعد عنى مشاكلاً بذلك قول القاضى له ابتداء: أنك لسبط الشهادة. أما الطباق فلان السبوطة ضد الجعودة كما تقدم. والجمع بين الضدين هو الطباق كما علمت.

---

(١) يريد : أن العقاد بعقله وذكائه خاض غمار المعرفة وتعمق فى فهم عويصات المسائل فلم تستعص عليه مسألة.

المشاكلة والجناس :

وكما جامعت المشاكلة الطباق جامعت الجناس كذلك. ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿ **وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا** ﴾ فقد اتحد اللفظان: سيئة سيئة. واختلف معنى كل منهما. فسيئة الأولى بمعنى الاعتداء بقول أو فعل. والسيئة الثانية بمعنى الجزاء والعقاب. واتحاد الكلمتين لفظاً مع اختلافهما معنى هو المسمى **بالجناس**. وأمر المشاكلة فى هذه الآية سبق لك الوقوف عليه تفصيلاً. وقد ظهر لك هنا أن الآية كما صلحت مثالاً للمشاكلة صلحت مثالاً للجناس.

والذى أدعوك أن تعيه أن اجتماع المشاكلة مع كل من الطباق أو الجناس ليس دائماً. وإنما هو فى الطباق مشروط بأن يكون طرفاً المشاكلة ضدين أو نقيضين. وشرطه فى الجناس أن يكون الطرف الثانى قد عبر عنه بلفظ الطرف الأول لا بلفظه هو الخاص به.

المشاكلة .. حقيقة أم مجاز :

الحقيقة اللغوية هى استعمال اللفظ فيما وضع له، أو هى اللفظ المستعمل فيما وضع له كلفظ الشمس إذا أردت بها ذلك الكوكب المعروف.

والمجاز اللغوى هو استعمال اللفظ فى غير ما وضع لعلاقة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الوضعى. أو هو اللفظ المستعمل فى غير ما وضع له ... الخ. وذلك كلفظ الشمس أيضاً إذا أردت به فتاة جميلة. واللفظ الذى وقعت به المشاكلة – أعنى الطرف الثانى من طرفى المشاكلة – لا ينطبق عليه حد الحقيقة ولا حد المجاز.

بيان ذلك :

إذا أخذنا قوله تعالى : ﴿ **فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ** ﴾ مقياساً للنظر فإن المشاكلة حصلت بـ (فاعتدوا عليه) وهذا اللفظ (فاعتدوا) لم يستعمل فيما وضع له بل استعمل فى معنى آخر موضوع له لفظ

آخر كان حق الكلام أن يعبر عن به. وهو (فجازوه أو عاقبوه بمثل ما صنع معكم. واستعمال اللفظ فى غير ما وضع له مخرج له من دائرة الحقيقة اللغوية.

وهذا يدعونا إلى القول فى ثقة أن المشاكلة ليست حقيقة لغوية، لعدم جريانها على قانونها.

فهل هى - إذن - مجاز لغوى.؟ بعض العلماء يقول بذلك. لأن اللفظ فيها لم يستعمل فى ما وضع له وعدم استعمال اللفظ فى ما وضع له مؤذن بورود المجاز. وعورض هذا الرأى بأن نقل اللفظ من معناه اللغوى الموضوع له إلى معنى آخر وإن كان شرطاً فى المجاز فإنه غير كاف لتحققه - يعنى المجاز - بل لابد فى كل مجاز من علاقة مصححة بين ما نقل عنه وما نقل إليه ولابد فيه من قرينة كذلك.

ولفظ المشاكلة خال من العلاقة المصححة للمجاز. إذ لا علاقة بين لفظى المشاكلة سوى وقوع اللفظ الثانى فى صحبة اللفظ الأول حقيقة أو تقديراً. وهذا الوقوع غير معتبر بين علاقات المجاز فلا تكون المشاكلة مستلزمة للمجاز بل هى مجرد مشاكلة لفظ لآخر فى مواضع يستظرف فيها ذلك. فالوقوع المذكور سوغ مجئ المعنى الثانى بلفظ المعنى الأول دون أن يرقى به إلى درجة المجاز.

وهذا يفضى بنا إلى القول - فى شئ من الاطمئنان - إلى أن المشاكلة ليست مجازاً لغوياً (١).

وإذا انتفى كون المشاكلة حقيقة لغوية وهذا أمر لا خلاف فيه، وانتفى كونها مجازاً لغوياً على الراجح فليس أمامنا إلا القول بأنها: **واسطة بين الحقيقة والمجاز اللغويين** - مثل الكناية - وبهذا أفتى العلامة بهاء الدين السبلى ونص عبارته:

---

(١) يرى بعضهم أنها مجاز مرسل علاقته المسببية. لأن الاعتداء الثانى مسبب عن الاعتداء الأول ولذلك عبر عنه بلفظه.

(والتحقيق أن المشاكلة من حيث هى مشاكلة ليست حقيقة ولا مجازاً، لأنها مجرد ذكر المصاحب بلفظ غيره لاصطحابهما . .) [1] وهذا رأى وجيه.

وهذه الحقيقة التى قررناها من أن المشاكلة ليست حقيقة ولا مجازاً، لا يقدح فيها ورود المشاكلة – أحياناً – من طرفين مجازيين، مثل سبوطة الشهادة وجعودتها كما فى المثال المتقدم.

وذلك بأن القول بأن المشاكلة ليست حقيقة ولا مجازاً معناه أن أسلوبها لا يستلزم ذلك وإن جاء فى بعض الصور. فهى تتحقق بغير الحقيقة والمجاز. فإذا وقع فى بعض صورها مجاز فذلك أمر طارئ عليها وليست هى متوقفة عليه.

وقد مر بك شبيهه فى الطباق . فقد رأيت هناك أن الطباق يأتى بألفاظ الحقيقة، ويأتى بألفاظ المجاز وليس واحد منهما بشرط أساسى فيه، لأنه يتحقق بتقابل الضدين أو النقيضين أياً كانا حقيقيين أو مجازيين أو مختلفين.

المشاكلة . . محسن معنوى أم لفظى ؟

المحسن اللغوى – حسب تعريفهم له – هو ما كان الحسن فيه راجعاً إلى المعنى أولاً وبالذات، ثم إلى اللفظ ثانياً وبالعرض. واللفظى عكس هذا – كما تقدم لك – فإلى أى منهما تنتسب المشاكلة إذن؟

فإذا عدنا إلى تعريف المشاكلة وهو : (ذكر الشئ بلفظ غيره لوقوعه فى صحبة ذلك الغير حقيقة أو تقديراً) رأينا التعريف يتناول الألفاظ وأن الداعى إلى التعبير باللفظ المشاكل إنما هو وقوعه فى صحبة لفظ آخر. وهذا يوحى بأن المشاكلة من المحسنات اللفظية.

لكن سلوك علماء البلاغة على أن المشاكلة من المحسنات المعنوية، ولذلك فإنهم يوردونها فى القسم المعنوى منه لا اللفظى. فعلى أى أساس بنوا نظرتهم هذه إليها.

---

(١) عروس الأفراح : شروح التلخيص جـ٤ ص٣١٠ .

لعل ذلك لأن التصرف إنما كان فى المعنى حيث نقل من اللفظ الخاص به إلى اللفظ المشاكل والتصرف فى المعنى هو الذى جعل البلاغيين يعدون المشاكلة من القسم المعنوى دون اللفظى.

لكن هذا الاتجاه لا يسلم به على عمومه، بل من المشاكلة ما يمكن درجه فى القسم اللفظى وهذا النوع هو ما كان طرفا المشاكلة فيه متحدين مثل: سيئة وسيئة واعتدى واعتدوا كما مر فى الآيتين الكريمتين. وقد سبق أن بعض صور المشاكلة تجامع الجناس والجناس محسن لفظى باتفاق، فكذلك المشاكلة الواردة على طريقته.

* * *

٣- التورية

التورية فى اللغة الإخفاء . قال سبحانه: ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ﴾ وقال حكاية عن ابن آدم: ﴿قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي﴾.

وروى أن من منهج النبى عليه السلام كان إذا أراد غزواً ورى بغيره وهكذا فإن المادة فى اللغة تدور حول الخفاء والستر. قال الراغب والورى الأنام الذين على وجه الأرض فى الوقت، ليس من مضى ولا من يتناسل بعدهم. فكأنهم الذين يسترون الأرض بأشخاصهم (١).

وإليك بعض أمثلتها : قال سبحانه : ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾.

يقول البلاغيون : أن لفظ استوى فى الآية الكريمة له معنيان أحدهما متبادر إلى الذهن وهو الاستقرار الحسى على نحو سرير وغيره، وثانيهما غير متبادر إلى الذهن وهو الاستيلاء والتمكن. والأول غير مراد أما الثانى فهو المراد، لأن الاستقرار الحسى مستحيل فى حق الله. ويسمون المعنى المتبادر إلى الذهن المعنى القريب، والثانى المعنى البعيد. ومرادهم بالقرب سرعة الحصول فى الذهن عند سماع اللفظ، كما أن مرادهم من البعد بطء حصول المعنى فى الذهن. فالقريب أسرع حصولاً، والبعيد أبطأ.

وكل لفظ هذا شأنه، أى له معنيان قريب وبعيد يسمى عندهم تورية فالتورية عند البلاغيين:

لفظ له معنيان أحدهما قريب غير مراد، والثانى بعيد مراد. فالتورية تكون بلفظ واحد حامل لمعنيين على الوجه الذى مر شرحه. وقصد المتكلم بأسلوب التورية إخفاء المعنى البعيد المراد وستره بالمعنى القريب غير المراد ولذلك فإن التورية تتكون من ثلاثة عناصر هى:

١- اللفظ الحامل للمعنيين.

---

(١) المفردات ص٥٢٠ .

٢- المعنى القريب. ويسمى المورى به. يعنى الذى حصل به الخفاء.

٣- المعنى البعيد ، ويسمى المورى. يعنى الذى وقع عليه الخفاء.

ولابد مع التورية من قرينة خفية كاستحالة الجلوس فى حق الله تعالى فى الآية الكريمة. ولابد فيها كذلك من تفاوت المعنيين فى القرب والبعد فإن تساويا فيهما فلا تورية مثل كلمة (جون) فلها معنيان أبيض - أسود لكنهما متساويان فى القرب والبعد ما لم تدل قرينة على المراد منها. هذه الكلمة لا تورية فيها لعدم تفاوت المعنيين.

أقسام التورية :

درج البلاغيون على تقسيم التورية إلى قسمين، أحدهما التورية المرشحة، وثانيهما التورية المجردة.

وعرفوا التورية المرشحة بأنها التى تجامع ما يلائم المعنى القريب المورى به كما عرفوا المجردة بأنها التى لا تجامع ما يلائم المعنى القريب المورى به ولا ثالث لهذين القسمين عندهم.

فمثال المرشحة قوله تعالى : ﴿ **وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ** ﴾ التورية فى لفظ (أيد) لأن له معنيين أحدهما الجارحة وهو المعنى القريب المورى به، والثانى القدرة وهو المعنى البعيد المورى. وقد جامعت هذه التورية ما يلائم المعنى القريب، وذلك لأن الترشيح حصل بكلمة (بنيناها) والبناء ملائم لليد بمعنى الجارحة أكثر من ملاءمته لها بمعنى القدرة. لأن اليد آلة البناء. ويلاحظ أن الترشيح فى هذه التورية وقع بعد لفظ التورية وهذا أحد نوعى التورية المرشحة.

ومن المرشحة عندهم قول الشاعر :

كـأن كانـون أهدى من ملابسه لشهـر تموز أنواعاً من الحلل

أو الغزالة من طول المدى خرفت فما تفرق بين الجدى والحمل

التورية فى لفظ (الغزالة) لأن لها معنيين أحدهما قريب وهو الحيوان المعروف. والثانى الشمس.

والترشيح فى قوله (الجدى والحمل) لأن كلاً منهما يلائم المعنى القريب المورى به فالمتبادر إلى الذهن من الجدى أنه ولد المعز، ومن الحمل أنه ولد الضأن والمراد فى البيت المعنى البعيد الذى هو الشمس.

والمعنى : الشاعر يصف صيفاً بارداً فيقول كأن كانون، وهو شهر من شهور الشتاء أهدى تموز وهو شهر من شهور الصيف أنواعاً من ملابسه وحلله. أو الشمس طال وجودها فى الكون فأصابتها الشيخوخة فخرفت وضعف عقلها فأصبحت لا تفرق بين بروج الشتاء من بروج الصيف فتنزل فى أى برج شاءت.

وبعض العلماء يرى التورية فى الجدى والغزالة ترشيح لها وبعضهم يرى الترشيح واقع فى قوله: خرفت. لأنه ملائم للمعنى القريب وتكون التورية فى الجدى والحمل [1] مجردة.

وعلى القول بأن التورية فى لفظ (الغزالة) فإن الترشيح واقع بعدها، وهوثانى نوعى التورية المرشحة.

أما التورية المجردة فهى التى لم تجامع شيئاً من ملائمات المعنى القريب سواء جامعت شيئا من ملائمات المعنى البعيد، أو لم تجامع.

مثال ما جامعت ما يلائم المعنى البعيد قول الشاعر عمر بن أبى ربيعة:

أيها المنكح الثريا سهيلا عمرك الله كيف يلتقيان

هى شامية إذا ما استقلت وسهيل إذا استقل يمانى

التورية فى لفظى (الثريا وسهيل) وهما هنا اسمان الثريا لفتاة، وسهيل لرجل. ومن معانيهما الكوكبان المعروفان. وهذا هو المعنى القريب المورى به، والمقصود منها المعنى البعيد الفتاة والرجل. وقد أتى الشاعر بما يلائم المعنى البعيد وهو قوله (المنكح) لأن النكاح من صفات الإنسان لا من صفات الكواكب.

---

(١) الجدى برج شتوى. والحمل برج صيفى.

ومثال التى لم تجامع شيئاً قوله تعالى : (الرحمن على العرش استوى) وقد مر بك تحليل هذه الآية الكريمة فى صدر البحث .

صور أخرى للتورية :

أوجزنا لك القول فى حد التورية وأقسامها حسب المنصوص عليه فى أسفار هذا الفن، بيد أن لنا ملاحظات سنعود لها فى نهاية الحديث عن التورية . وإليك الآن نماذج أخرى للتورية لتتأصل فيك روح الدربة والتعرف .

قال أبو الحسن الجزار :

كيف لا أشكـر الجـزارة مـا عشت حفـاظا وأهجر الأدابا

وبها صارت الكلاب ترجينى وبالشعر كنت أرجو الكلابا [1]

التورية فى لفظ (كلاب) الثانى لأن له معنيين قريب واضح وهو الحيوان المعهود، وبعيد خفى وهو اللئام من الناس . وهو المراد . وهى تورية مرشحة لأن قوله قبلها (وبها صارت الكلاب ترجينى) من ملائمات المعنى القريب .

وقد يخطر لك أن التعبير هنا من باب المشاكلة وهى – كما تقدم – ذكر الشئ بلفظ غيره لوقوعه فى صحبة ذلك الغير تحقيقاً أو تقديراً . يعنى أن الشاعر ساغ له أن يذكر لئام الناس بلفظ الكلاب لوقوع هذا المعنى فى صحبة (الكلاب) وقوعاً حقيقياً إذا خطر لك ذلك فأنت على شعبة من الصواب .

ولكن ينبغى أن تعلم أن لئام الناس كثر التعبير عنهم بلفظ الكلاب من ذلك قوله تعالى : ﴿ **فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ** ﴾ .

وقول الشاعر :

يا كلب ما لك أم من بنى أسد معروفة فاحترق يا كلب بالنار

وقال الفرزدق فى وصف جرير : (هروه فوجدوه عند الهراش نابحاً)

---

(١) يقول : أن شكر الجزارة حق على حيث جعلت الكلاب ترجو نفعى وكنت قبلها أرجو الكلاب بالشعر – يعنى أمدح الكلاب به رجاء نفعها لى . والمراد بالكلاب فى البيت الثانى : من يمدحهم بشعره .

وإذا ثبت ذلك فإن التعبير – هنا – ليس من صور المشاكلة، لأن المشاكلة معناها: أن اللفظ الثانى إنما صح التعبير به عن المعنى المراد لكونه مصاحباً للأول ولولا تلك المصاحبة لما جاز التعبير به. وها هنا قد وجدنا أن تشبيه الناس بالكلاب فى بعض صفاتها وارد وروداً أصيلاً ولم يتوقف ذلك على وجود المشاكلة. ولذلك فإن الصورة الأدبية فى قول الجزار صورة مجازية فى الأصل على طريق الاستعارة التصريحية الأصلية ولما كان ذكر الكلاب حقيقة مصاحباً لها سميت تورية مرشحة وهى قريبة من الاستعارة المرشحة لأن الشاعر إنما قصد إلى المعنى المجازى بعد أن وراه بالمعنى الحقيقى القريب.

كما قد يخطر لك أن التعبير من باب الجناس الذى هو اتحاد اللفظين مع اختلاف المعنى. وهذه الخاطرة صحيحة لأن النوعين البديعيين: التورية والجناس قد يجتمعان فى بعض الصور. وهذه منها.

وقال يحيى بن منصور:

فإما نأت عنا العشيرة كلها أنخنا فحالفنا السيوف على الدهر

فما أسلمتنا عند يوم كريهة ولا نحن أغضينا الجفون على وتر (١)

التورية فى لفظ (الجفون) لأن له معنيين قريب واضح وهو (جفون العيون) وبعيد خفى وهو: (جفون السيوف) والمعنى البعيد هو المراد. وقد جامعت التورية ما يلائم المعنى القريب. لأن (أغضينا) يلائم جفن العين. فالتورية هنا مرشحة.

وقال آخر:

أرى العقد فى ثغره محكماً يرينا الصحاح من الجوهر

التورية فى لفظ (الصحاح) لأنه دال على معنيين قريب واضح وبعيد

---

(١) المعنى ولما عدانا الناس لم نجزع بل تروينا الأمر وحملنا السيوف فما خزلنا ولا ضعفت عزيمتنا.

خفى . القريب الواضح – كما نصوا عليه – هو كتاب الجوهرى المسمى بالصحاح وهو أحد معاجم اللغة المعروفة .

والمعنى البعيد الخفى هو أسنان محبوبته الشبيهة بالجواهر . وقد اقترنت التورية هنا بما يلائم المعنى البعيد وهو قوله (فى ثغره) لأن هذه العبارة تناسب (الأسنان) ولذلك فإن التورية هنا مجردة لعدم مجامعتها لشئ من ملائمات المعنى القريب .

ومن ألطف ما ورد من صور التورية قول الشاعر :

يـــا عازلى فيه قـل لى إذا بدا كيـف أســلو

يمر بـــى كـــل وقـــت وكلما مـــــر يحـــلـــو

المعنى : يا لائمى دلنى كيف أسلو عن محبوبى حينما أراه وكثيراً ما أراه ماراً بى وفى كل مرة أراه يزداد حلاوة عندى .

والتورية فى لفظ (مر) إذ معناه القريب الواضح (المرارة) التى هى ضد الحلاوة .

والمعنى البعيد الخفى (المرور) الذى هو السير . وقد قرنت التورية هنا بما يلائم المعنيين القريب والبعيد . فالذى يلائم المعنى البعيد قوله (يمر بى كل وقت) والذى يلائم المعنى القريب هو قوله (يحلو) .

ما نوع هذه التورية ؟ هل هى مرشحة أم مجردة . إذا نظرنا إلى ملائم المعنى القريب ، وهو موجود فيها ، فهى مرشحة ، لأن التورية المرشحة كما علمت هى ما جامعت شيئاً من ملائمات المعنى القريب . وبعض الكاتبين [1] عدها تورية مجردة لتعارض ملائم المعنى القريب بملائم المعنى البعيد إذ هما موجودان فيها . وهذا الرأى بعيد عن الصواب .

وذلك لأن الترشيح والتجريد فى التورية منظور فيه إلى ملائم المعنى

---

(١) انظر كتاب محاضرات فى البديع ص٦٤ د . محمود شيخون .

القريب. فإذا وجد فالتورية مرشحة. وإذا لم يوجد ملائم المعنى القريب فى الكلام فالتورية مجردة سواء وجد ملائم للمعنى البعيد أو لم يوجد فالمجردة إذن نوعان:

١- ما خلت من ملائم المعنيين كقوله تعالى ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾.

٢- ما قرنت بملائم المعنى البعيد وقد مرت أمثلتها ومنها:

أيها المنكح الثريا سهيلا ..

وعلى هذا فإن التورية تصبح مرشحة متى وجد فى الكلام ما يلائم المعنى القريب حتى لو عورض هذا الملائم بما يلائم المعنى البعيد كما فى البيت الأسبق: يمر بى كل وقت.

فعد التورية فيه مجردة مع توافر شرط الترشيح فيها غير دقيق فيما نعلم.

هذا .. وقد مر بك أن لنا ملاحظة على هذا التقسيم ووعدتك بالعودة إليه هنا.

وخلاصة ذلك:

كان من الأنسب أن تقسم التورية من حيث الترشيح والتجريد على الوجه الآتى:

(أ) مرشحة، وهى التى تجامع ما يلائم المعنى القريب ما دام المقصود من التورية الإيهام.

(ب) مجردة وهى التى تجامع ما يلائم المعنى البعيد، لأن فيه إيحاء إلى المقصود وهذا ينافى المقصود من التورية الذى هو الإيهام.

(جـ) مطلقة وهى التى تخلو من ملائمى المعنيين القريب والبعيد بالا تجامع واحداً منهما. أو تجامعهما معاً فيتساقطا بالتقابل كما رأيت فى (يمر بى كل وقت .. وكلما مر يحلو).

ولست أدرى لماذا أهمل البلاغيون هذا التقسيم مع أنهم صرحوا به فى باب الاستعارة ؟!

التورية بين الحقيقة والمجاز :

لعلك تذكر أن التورية عمدتك فيها لفظ واحد حامل لمعنيين قريب وبعيد . وهذان المعنيان قد يكونان حقيقيين ويكون اللفظ الدال عليهما مشتركاً بينهما مع تفاوتهما فى الإدراك عند سماع اللفظ وقد يكونان مختلفين الأول حقيقة، والثانى مجازاً . وعلى هذا تقدمت الأمثلة .

فقول الشاعر :

يمر بى كل وقت وكل ما مر يحلو

علمت أن التورية فى لفظ (مر) ومعنياه حقيقيان سواء كان من المرور بمعنى السير، أو المرارة ضد الحلاوة . فدلالته على أى منهما دلالة حقيقة وليست مجازاً .

وقوله تعالى ﴿ **وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ** ﴾ التورية فى لفظ (أيد) ومعناها القريب الجارحة التى نزاول بها أعمالنا . فهى حقيقة فيه . أما معناها البعيد فهو القدرة وهو معنى مجازى لا حقيقى وإذا وضح لك هذا فاعلم :

أولاً : إذا كان لفظ التورية حاملاً لمعنيين حقيقيين فالتورية من باب الحقيقة ضرورة .

ثانياً : إذا كان لفظ التورية حاملاً لمعنيين أحدهما حقيقى والثانى مجازى وهو دائماً – يعنى المعنى المجازى – فى التورية هو المعنى البعيد المورى بالمعنى القريب . إذا كان الأمر كذلك فإن التورية أدخل فى باب المجاز منها فى باب الحقيقة .

وذلك لأن المقصود فيها هو المعنى المجازى وإن وورى بالمعنى الحقيقى ذلك ما أراه أولى بالاعتبار .

* * *

٤- حسن التعليل

قال الشاعر [١] :

أتتني تؤنبني في البكا ... فأهلاً بها وبتأنيبها

تقول - وفي قولها حشمة - ... أتبكي بعين تراني بها

فقلت : إذا استحسنت غيركم ... أمرت الدموع بتأديبها

يريد الشاعر أن يقول :

أن محبوبته رأته يبكي فجاءت تؤنبه وتنكر عليه أن يبكي بعين يراها بها فالتمس لذلك عذراً وأدعى أن بكاءه هذا عقاب وتأديب للعين يحل بها منه كل ما نظرت إلى حسناء غير الحبيبة المعاتبة المدللة.

فالبكاء الذى هو قضية هذه الأبيات له سبب وعلة وبواعث مختلفة. فقد يكون البكاء من أجل ألم غير محتمل تعرض له صاحبه وقد يكون من أجل فراق عزيز عليه لم تهدأ نفسه من أجله إلا بذرف الدموع. وقد يكون سببه الحرمان القاسى والعذاب المر الذى يكتوى بناره أهل الشوق الحارق والعواطف المتقدة.

والمحبوبة المعاتبة المدللة لم تسأل (قيسها) عن سبب البكاء ما هو. ولكنها أنكرت عليه ذلك أساساً ادعاء منها بأن عينا تراها هى فى (قمة) السعادة مهما فاتها من الحظوظ وضروب النعم.

فاحتال (قيسها) واجتهد فى تقديم (عذر) ترضى عنه (ليلاه) فطوى فى نفسه سبب بكائه الحقيقى وادعى أنه يؤدب تلك (العين) بذرف هذه الدموع كلما نظرت إلى غير (الحبيبة) المدللة.

طوى فى نفسه (العلة الحقيقية) والتمس (علة أخرى) ليست هى

---

(١) هذه الأبيات مجهولة القائل ولذلك تردد القول بين نسبتها لابن العربى وبين نسبتها لابن المعتز

الباعث على البكاء وهذا السلوك يسميه البلاغيون حسن التعليل. وقد عرفوه بقولهم:

(أن يدعى لوصف علة مناسبة له باعتبار لطيف) [1].

وليس بخاف عليك فهم التعريف بعد أن وقفت على معنى الأبيات المتقدمة حيث ادعى الشاعر الباكى علة مناسبة لبكائه طاوياً فى نفسه سببه الحق. مراعياً فى ذلك مناسبات المقام من إبداء حسن التعليل فى مقام العتاب والإنكار من حبيب مستظرف مستملح.

أقسام حسن التعليل :

لحسن التعليل - عندهم - قسمان كل منهما تحته نوعان. وإليك هى:

١-أن يكون الوصف ثابتاً والمقصود بيان علته.

٢-أن يكون الوصف غير ثابت. هذان هما القسمان. أما نوعا كل منهما فعلى النحو التالى:

فالقسم الأول الذى يكون فيه الوصف ثابتاً، والمقصود بيان علته نوعاه هما:

(أ)أن لا يظهر له فى العادة علة.

(ب)أن يظهر له علة لكنها غير المذكورة.

والقسم الثانى الذى ليس الوصف فيه ثابتاً نوعاه هما:

(أ)أن يكون ممكناً.

(ب) أن يكون غير ممكن. وإليك - الآن - شواهد كل منهما على الترتيب:

قال أبو الطيب يمدح:

---

(١) راجع الإيضاح للخطيب جـ٢ ص٣٦٧ . وشروح التلخيص حـ٤ ص٣٧٣ وما بعدها.

لم يحك نائلك السحاب وإنما حمت به فصبيبها الرحضاء[1]

حاول الشاعر أن يلتمس سبباً لنزول المطر ويعلله بالحمى التى أصابت السحاب من أجل غيرتها من كرم الممدوح. وليس للمطر علة فى العادة[2].

ومثله قول أبى تمام :

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالى

أراد الشاعر أن يلتمس علة لفقر الكرماء ونبلاء العشيرة – وهو غير معلل – فاحتال على ذلك بتشبيه الكريم بالمكان العالى المرتفع من حيث أن السيل لا يصل إليه فكذلك كريم القوم، لأنه ذو مكانة عالية رفيعة فإن الغنى لم يصل إليه. وهذا كما يقول الإمام عبد القاهر (قياس تخييل وإيهام، لا تحصيل وإحكام[3]).

وشبيه بهذا قوله :

أن ريب الزمان يحسن أن يهدى الرزايا إلى ذوى الأحساب

فلهذا يجف بعد اهتزاز قبل روض الوهاد روض الروابى

المعنى : أن الرياض الباسقة فى الأماكن العالية (الروابى) أسرع إلى الذبول من الرياض النابتة فى الأماكن الواطئة (الوهاد) وهذا وصف علته معلومة[4].

---

(١) النائل : العطاء – الصبيب : ما يصب من السوائل. والرحضاء: عرق الحمى والمعنى أن السحب المواطر لم تحاك عطاءك وكرمك وإنما رأيتك بالغاً فى العطاء درجة لا مطمع فى محاكاتها فغارت منك ومرضت بالحمى من أثر الصدمة فأمطرها عرق الحمى التى أصابتها من أجلك ؟.

(٢) لا شك أن للمطر علة علمية معروفة، ولكنها غير ملحوظة على حسب العادة عند كل الناس.

(٣) أسرار البلاغة ٢١٤ .

(٤) العلة هى وجود الماء فى رياض الوهاد ، وسرعة ذهابه عن رياض الروابى. ولعلك تدرك أن الشبه بين النصين من حيث المعنى العام وليس معناه أن هذا النص شاهد على النوع الأول لأن العلة فيه معلومة. والنوع الأول العلة فيه غير ظاهرة. فهما من شواهد النوع الآتى.

ولكن الشاعر صرف الكلام على غير جهته فادعى أن سبب هذا الوصف هو عداء الزمان لكل شريف :

وقال أبو العباس الضبى :

لا تركنن إلى الفراق وإن سكنت إلى العناق

فالشمس عند غروبها تصفر من فرق الفراق [1]

ادعى الشاعر أن اصفرار لون الشمس حال الغروب مرده إلى خوفها من الفراق حيث تتوارى عن الوجود.

ومن اللطيف فى هذا قول أبى هلال العسكرى :

زعم البنفسج أنه كعذاره حسناً فسلوا من قفاه لسانه

فزهرة البنفسج تمتاز بوجود نبتة زائدة خلفها. فادعى الشاعر أن سبب هذه (الزائدة) تأديب وقع على زهرة البنفسج حين زعم أن حسنه كحسن عذاره. يعنى شعر اللحية – وإسناده للزهرة على التشبيه – فانتزعوا لسانه من قفاه.

أما شواهد النوع الثانى فمنها قول أبى الطيب المتنبئ :

ما به قتل أعاديه ولكن يتقى أخلاف ما ترجو الذئاب

قتل الأعداء له سبب وعلة وهو القضاء عليهم. لكن الشاعر قد التمس علة أخرى وهى أن الشاعر ليس مطبوعاً على الفتك بأعدائه – لأنه كريم – وإنما الذى حمله على قتلهم أن الذئاب تعودت أن تبتغى أرزاقها أثر معاركه من قتلى الأعداء، ولولا أن الممدوح يكره أن يخيب رجاؤها منه لما قتل عدواً ؟!

ومنه قول أبى طالب المأمونى يمدح كريماً :

لا يذوق الإغفاء إلا رجاء أن يرى طيف مستميح رواحا [2]

---

(١) فرق الفراق : يعنى رهبة الفراق والخوف منه.

(٢) المستميح طالب العون – رواحا. يعنى مساء. أى بعد أن يتقطع طلاب الحاجات.

فالنوم له علة معروفة لم يعتمدها الشاعر ملتمساً له علة أخرى تتضمن المدح. والمعنى أن هذا الممدوح يشبع رغبات طلاب الحاجات فإذا لم يبق طالب معروف يراه فى اليقظة فإنه ينام عله يمتع نفسه بطيف سائل فيلبى حاجته ؟!

ومثله قول الشاعر :

وإنى لأستغشى وما بى نعسة لعل خيالاً منك يلقى خياليا

ومن أجمل ما قيل فى هذا قول الصولى :

الريح تحسدنى عليك ولم أخلها فى العدا (١)

لما هممت بقبلة ردت على الوجه الردا

معروف أن الإنسان إذا قابل بوجهه مسار الريح فكانت حركاته مضادة لحركتها فإن الريح ترد طرف الرداء – يعنى الثوب ونحوه – على وجه السائر فى اتجاه مغاير لاتجاهها (عكسى) .

لكن الشاعر قد تجاهل السبب الحقيقى فى هذا الفعل. وأراد أن يثبت له علة أخرى. فاحتال لذلك وادعى أن الريح تحسده على حبه لها ولذلك فإنه إذا هم ليقبلها أسرعت الريح فردت طرف ردائه على وجهه لتحول بينه وبين ما يريد.

ومن هذا قول كشاجم يعلل نزول الحمى ولزومها بعلى بن سليمان الأخفش:

ولقد أخطأ قوم زعموا أنها من فضل برد بالعصب

هو ذاك الذهن أذكى ناره والمزاج المفرط الحر التهب (٢)

نفى أن تكون حرارة الجسم المصاب بالحمى من فعل الحمى نفسها. وادعى

---

(١) انظر أسرار البلاغة ص٢٢٤ .

(٢) أذكى : أشعل – المفرط : الزائد.

أن سبب ذلك هو اتقاد ذكاء الممدوح وفرط مزاجه الحر. فقد طوى السبب الحقيقى مكانه سبباً آخر رآه أنسب بمقام الممدوح.

وقال المتنبى فى هذا المعنى أيضاً :

ومنازل الحمى الجسوم فقل لنا ما عذرها فى تركها خيراتها

أعجبتها شرفا فطال وقوفها لتأمل الأعضاء لا لأذائها

فقد نزلت الحمى بصاحب الشاعر ولزمته. هذا له سبب هو وجود الميكروب واستمراره وعدم مقاومته بالعلاج.

لكن الشاعر صرف نظراً عن هذا السبب وادعى له علة أخرى فيها عزاء وتسليه للمصاب فقال :

إن منازل الحمى التى ترتع فيها هى الأجسام. وليس لها عذر إذا تركت ما فى منازلها من خيرات وخيرات.

ولقد أعجبت الحمى بشرفك ونباهتك فطال نزولها بك وحلولها بجسمك لتتأمل ما فى أعضائك من حسن واتساق، ولم تقصد بطول حلولها بها أن تؤذيها أو تعذبها ؟! (١).

ولما كان الاحتيال على العلل هو صنعة الشاعر ، فقد استطاع بعضهم أن يجمع بين الشئ وضده، وأن يتلاعب بمهارة فى التوجيه والتعليل. فأنت ترى المتنبى فى النص المذكور آنفا يتخذ من شرف الممدوح وعلو همته ومطمعاً للحمى، وسبباً فى نزولها ولزومها به.

وعلى العكس من ذلك تراه يتعجب فى بعض المواضع كيف تصل الأمراض إلى ذوى المعالى من الناس. قال يخاطب سيف الدولة وقد أصيب بدمل فى أصبعه.

أيدرى ما أرابك من يريب وهل ترقى إلى الفلك الخطوب

---

(١) انظر أسرار البلاغة ص٢٢٧ .

وجسمك فوق همة كل داء فقرب أقلها منها عجيب [1]

ولابن الرومى احتيال ساحر فى تلمس علة لحمرة الورد غير علة التكوين. فيعمد إلى أن سبب تلك الحمرة هو الخجل. والذى حمل الورد على الخجل أنه رأى كثيراً من الأدباء يفضلونه على النرجس. وهو يرى – يعنى الورد – أنه أقل بهاء وحسناً من النرجس فإذا سمع كلام من يفضله عليه احمرت خدوده خجلاً لذلك، لأن مفضله على النرجس ليس معه حجة على ما يقول. فيخشى الورد أن يصير ذلك هزءاً به وغميزة. وإليك نصه فى ذلك:

خجلت خدود الورد من تفضيله خجلاً توردها عليه شاهد [2]

لم يخجل الورد المورد لونه إلا وناحله الفضيلة عاند

وتنقل الرواية العربية أن الرسول صلى الله عليه وسلم حين مات ولده إبراهيم حزن عليه حزناً شديداً. فأراد شاعره حسان بن ثابت أن يعزيه فالتمس لموت إبراهيم علة فيها مسلاة وتعزية للرسول عليه الصلاة والسلام فقال حسان:

رأى أنه لو عاش ساواك فى العلا فآثر أن تبقى فريداً بلا ند

فموت إبراهيم له سبب وعلة هى استيفاؤه الأجل. ولكل أجل كتاب ولكن حساناً طوى فى نفسه هذه العلة والتمس أخرى تقوم مقامها وهى: أن إبراهيم عليه السلام آثر الموت على الحياة، لأنه أدرك أنه إن عاش كان مساوياً لوالده عليه السلام فى الفضل. وهو يريد أن يعيش والده فريداً لا مثيل له فى الناس. ولذلك آثر إبراهيم عليه السلام الموت على الحياة.

وقال ابن المعتز يرد على حبيبته التى صدت عنه لما شاب وكبر:

صدت سرير وأزمعت هجرى وصغت ضمائرها إلى الغدر

---

(١) أرابك: أحدث بك القلق. والمعنى أن هذا الداء الذى أصابك يجهل منزلتك ولو علم بها لما جرؤ على أن يصيبك، لأنك عالى المنزلة وجسمك لا ترقى إليه الأمراض. فإذا أصابك شئ منها فذلك أمر يدعو إلى العجب.

(٢) عائد: مائل عن الصواب. وانظر النص كاملاً فى أسرار البلاغة ص٢٢٩.

قالت : كبرت وشبت قلت لها : هذا غبار وقائع الدهر [1]

التمس للكبر والشيب علة غير ما هى لهما سالكاً فى ذلك منهج حسن التعليل كما ترى.

وقال ابن هانئ الأندلسى :

لو لم تصافح رجلها صفحة الثرى لما كنت أدرى علة للتيمم [2]

علة التيمم بالثرى معلومة، لكن الشاعر ادعى أن العلة فى ذلك هى أن رجل المحبوبة بملامستها للثرى أكسبته طهارة وشرفاً ولذلك أمرنا بالتطهر به؟!.

وقال بعض الغزليين [3] :

إذا قلت : أهدى الهجر لى حلل البلى

تقولين : لولا الهجر لم يطلب الحب

وإن قلت : هذا القلب أحرقه الهوى

تقولى : بنيران الهوى شرف القلب

وإن قلت : ما أذنبت قلت مجيبة :

حياتك ذنب لا يقاس بها ذنب

الشاعر يشكو حاله إلى حبيبته عساها تعطف وتصل فيزول ما به من عذاب ومعاناة. لكنها كلما ذكر لونها من مآسيه الحارقة تجيبه فى هدوء مستحسنة متاعبه وآلامه، ذاكرة له ما يبرر كل ما عنده من شقاء.

فالهجر علة فى حلاوة الحب ولولاه لم يطب. وحرقة القلب من شدة الشوق علة فى تشريف القلب.

(١، ٢) المرجع السابق.

(٣) انظر الأدب الصوفى للدكتور محمود فرج العقدة.

والشاعر يتضرع إليها ببراءته فلا ترى ذنباً أكبر من حياته وليس له كفارة سوى الموت.

وحسبى وحسبك ما أثبته لك - هنا - من نصوص على هذا النوع من حسن التعليل الذى يسيل عذوبة ورقة.

ومن شواهد الثالث الذى هو الوصف فيه غير ثابت وهو ممكن وردت النصوص الآتية:

قال مسلم بن الوليد:

يا واشيا حسنت فينا إساءته نجى حذارك إنسانى من الغرق

الواشى: الساعى بين الناس بالكلام المفسد للعلاقات الطيبة. وإنسانى: يعنى إنسان العين. وهو سوادها. والمراد حبة العين.

فالوصف الذى ليس هو ثابتاً هنا هو استحسان وشاية الواشى. فهو مقطوع بنفيه ولكنه ممكن. ولما كان هذا الحكم غريباً وليس مما يألفه الناس علله بقوله: نجى حذارك إنسانى من الغرق.

والمعنى: أن حذر وشايتك نبهنى إلى كتم شعورى ودعانى إلى التجلد وترك البكاء خشية أن تعلم من حالى ما أكره. وكان فى هذا حماية لعينى من الغرق فى البكاء (١).

ومنه قول عنترة بن شداد العبسى:

ولقد ذكرتك والرماح أهلة على وبيض الهند تقطر من دمى

فوددت تقبيل السيوف لأنها لمعت كبارق ثغرك المبتسم

الوصف المقطوع بنفيه هنا هو تقبيل السيوف، لكنه ممكن كذلك. ولما كان فيه غرابة احتاج الشاعر إلى ذكر علة له تقربه من الإمكان وهى قوله: لأنها لمعت كبارق ثغرك..

---

(١) انظر شرح التلخيص جـ٤ ص٣٧٨.

فهو إنما أحب تقبيل السيوف لأنها كانت تلمع فى ناظريه لمعان ثغر محبوبته.

أما النوع الرابع وهو ما كان الوصف فيه غير ثابت وليس ممكن الوقوع فقد مثلوا له بقول الشاعر:

لو لم تكن نية الجوزاء خدمته لما رأيت عليها عقد منتطق

الجوزاء برج حوله مجموعة كواكب تسمى نطاق الجوزاء. والمنتطق هو من ربط النطاق – وهو الحزام – حول وسطه.

والمعنى : أن الجوزاء جند من جنود خدمة الممدوح. والدليل على ذلك أنها قد شدت النطاق حولها اجتهاداً منها فى خدمته. ولو لم تكن نيتها خدمة الممدوح لما انتطقت – هكذا – كما تراها [1].

هذا . وتستطيع أن تسلك بيت حسان السابق فى رثاء إبراهيم ابن الرسول عليهما السلام:

رأى أنه إن عاش ساواك فى العلا فآثر أن تبقى فريداً بلا ند

تستطيع أن تسلك هذا النص من شواهد هذا النوع. لأن حساناً أزاد أن يعلل وصفاً غير واقع ولا هو ممكن الوقوع.

ها أنت ذا قد عرفت ما هو حسن التعليل حداً وأنواعاً وتمثيلاً. وإذا وقفت قليلاً لترجعه إلى أصله وجدت أن أكبر مصدر له هو التخييل، لأن تعليل الشئ المعلل بغير علته المعلومة هو صنع الخيال وحده وهنا تتفاوت مواهب الشعراء فى ذلك.

وهناك بعض النماذج التى كان للتشبيه فيها أثر ملحوظ كبيت ابن الرومى فى تفضيل النرجس على الورد حيث ادعى أن حمرة الورد إنما هى حمرة خجل،

---

(١) راجع فى ذلك حاشية الدسوقى شروح التلخيص جـ٤ ص٣٨١ .

وليست حمرة جمال، فقد أثبت للورد خدوداً. وأثبت للخدود حمرة وكان ابن الرومي صانعاً ماهراً فى هذا.

ومن فرائد هذا الفن قول ابن المعتز :

وانظر إلى دنيا ربيع أقبلت مثل البغى تتوجت لزناة
وإذا تعرى الصبح من كافوره نطقت صنوف طيورها بلغات
والورد يضحك من نواظر قنيت وآذن حيها بممات

وشاهدك فى البيت الأخير حيث علل تفتح الورد بعد أن شبهه بالضحك بأنه لم يفعل ذلك إلاشماتة فى النرجس الذى ذبلت نواظره وأشرف الأحياء منه على الممات. فهل رأيت أرق وأعذب من هذه الصفة اللطيفة.

وابن المعتز – هنا – يجرى على خلاف مذهب ابن الرومى فى تفضيل النرجس على الورد فإن ابن الرومى حين فضل النرجس على الورد فصل بينهما من حيث أن النرجس يظهر أول الربيع فسماه ابن الرومى قائداً لزهر الرياض. ولما كان الورد يظهر فى أواخر فصل الربيع سماه ابن الرومى طارداً لتلك الزهور وشتان بين قائد الجمال والبهجة وبين طاردهما. وقد ضمن ابن الرومى هذا الاعتبار اللطيف قوله :

فصل القضية أن هذا قائد زهر الرياض وأن هذا طارد

ثم يؤكد ابن الرومى نظرته فيقول :

للنرجس الفضل المبين وإن أبى آب وحاد عن الطريقة حائد

وأنت خبير بأن هذا المعنى الذى مدحه ابن الرومى فى جانب النرجس وذمه فى جانب الورد هو الذى عكس القضية فيه ابن المعتز فضل الورد لأنه يقدم بعد ذبول النرجس فجعل تفتحه ضحكاً ساخراً من إدبار النرجس واختفائه عن الوجود. ولكل من الشاعرين علة وسبب بنى عليه نظرته.

وهكذا فإنك تجد فى هذا الفن – حسن التعليل – الشئ وضده ما دام مصدره التخييل وإنكار الواقع.

ولذلك فإنك لا تجد شيئاً من هذا فى الأساليب الجادة كالقرآن الكريم وإنما مجاله عند الشعراء المتملحين المتظرفين. هو خدعة حيث تستظرف الخدعة ودعابة حيث تحمد الدعابة.

هذا .. وإن كنت قد أطلت عليك فى (حسن التعليل) فليس لى عذر إلا حسن التعليل.

* * *

٥ - المبالغة

قال أبو نواس يمدح هارون الرشيد:

وأخفت أهل الشرك حتى أنه

لتخافك النطف التى لم تخلق

والمعنى: أن الممدوح قد جاهد المشركين وأنزل بهم من العذاب ما أذهب صوابهم وأحل بهم الذعر الشديد منه. لدرجة أن خوفهم منه لم يقتصر على الأحياء. بل تخطاهم إلى ما سوف يلد من ظهورهم من ذريات، يعنى أن الجيل المعاصر له قد خافه وحذره وأن الأجيال التى لم تخلق قد حدث لها نفس الشعور من الحذر والرهبة.

إذا تأملت ما أراد الشاعر أن يصف به ممدوحه، وجدت قسماً منه ليس بمنكر ولا بمستغرب، وهو إخافة الأحياء من أهل الشرك المعاصرين للممدوح. ووجدت قسماً آخر منكراً لا سبيل إلى إمكان وقوعه، وهو إخافة الأجيال التى لم تخلق بعد وهذا واضح.

ولذلك فإن للنقاد موقفاً من قول أبى نواس هذا، وكل ما كان على نهجه،